المُوافقَاتُ بَيْنَ القرآنِ والسُّنَّة

الأستاذ مصطفى خميس*

دلالة الموافقات بين القرآن والسُّنَّة

دَوْرُ الرّسول الأعظم ﷺ يُعدُّ بحقٍّ امتداداً طبيعياً، وناتجاً حتمياً، لدور القرآن الكريم، وهو جذوة من فيض نوره الإلهي، ووحيه الربّاني. كما يُعَدُّ إتماماً لمسيرته الرّسالية في هداية البشرية، وتعريف النَّاس بالخالق العظيم، سبحانه وتعالى، وتعليمهم الحكمة من عبادته، وكيفيَّة توحيده وطاعته، وتنفيذ أوامره، كما أرادها تبارك وتعالى.

ويقوم بمهامّه تلك، وبدعوته إلى الله، ببصيرة نافذة، وعلم يقينيٍّ، ونصٍّ جليٍّ موحى إليه من طريق الوحي الأمين، عن المقام المقدَّس للعزَّة الإلهيَّة، والذات الصمدانيَّة، من غير احتمال حدوث خطأ في سيرته الرّسالية، أو تبليغه، أو تلقّيه ما يُوْحى إليه، بسبب عصمته عليه الصَّلاة والسَّلام، وعناية الله ولطفه به، وبتصديق الرِّسالة، إذ أنه لو عُرف عنه كذبه في قولٍ، أو خطله في رأي، لما صدَّقه الناس في خبر السماء، ولصار واحداً من عامتهم يسري عليه الكذب والصحيح، والخطأ والصواب، كما يسري على عامّتهم.

لكنّ الله، عزّ وجلّ، عصمه عن ذلك كلّه بقوله تعالى: ﴿إن هو إلاّ وحيٌ يُوْحى﴾. وهو كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، في خطبته (القاصعة)، يصف فيها رسول الله ﷺ: «ولقد قرن الله به ﷺ، من لدن أن كان فطيماً، أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره».

---

* باحث من سورية

والمُجْمَعُ عليه عند علماء الأمّة أنه ﷺ أوّلُ خلق الله وخاتم رسله، وأنّه لا يصدر عنه إلاّ الصحيح، وهو مسدّد بأمر الله وتوفيقه، ومعصوم عن الخطأ والزَّلل والذنوب، بعلمه اللدني وبالوحي المنزَّل عليه من السماء، وبإرادة الله سبحانه وتعالى.

ومن بعد النبيّ ﷺ يأتي دور ورثته، وهم الأئمّة من بعده، الذين يحملون صفاته الجسدية والنفسية، وجيناته الوراثية (الكروموزومات، حسب علم الوراثة). فيرثون مهمّة متابعة الرّسالة واستمرارها من بعده، لأنهم الصَّفوة المختارة، وهم الذين جعلهم الله سابقين إلى الخيرات بأمر الله تعالى، فهم صفوته عزَّ وجلَّ من بين خلقه الذين منهم ظالم لنفسه (هالك) ومنهم مقتصد، وهم من رسول الله يقتدون بسيرته وأخلاقه، ويحملون علومه ومعارفه ويبلّغونها للناس بكل دقّة وأمانة وتسديد من الله عز وجل. وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿**والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدّقاً لما بين يديه إنّ الله بعباده لخبير بصير * ثم أورثنا الكتابَ الّذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير**﴾ [فاطر/ ٣١ و٣٢].

كلّ ذلك من أجل استمرار الخط العصموي، والتبليغ الرّسالي، الذي جعله الله عزَّ وجلَّ في الفئة المصطفاة، ليكون لله خليفة في الأرض، يقيم فيها العدل، ويمثّل حكومة الباري من غير تجاوزٍ على حدٍّ رسمه الله، ومن غير تحريفٍ أو تبديلٍ لكلمات الله سبحانه وتعالى. وإنّه من اللطف الربّاني، والعناية الإلهية بسيّدنا محمد صلوات الله عليه وآله وسلم، أنه قد نهل من فيض نور القرآن حتى صار من تكوينه، فخالط لحمه ودمه، وامتزج بعقله وقلبه، فغرف من بحور علمه ومعرفته، وأحاط بالذي فيه، فوعاه عقله ونطق به لسانه، وصدّق به جنانه.

هذا الانصهار الكلّي، والاندماج الروحي والجسدي، وهذا الغذاء الرَّحماني القرآني المجيد، جعل من النبي ﷺ معجزة بحدّ ذاته، كما أنَّ القرآن الكريم نفسه معجزة بحدّ ذاته، فنفس النبي ﷺ صارت قبساً من روحانيّته، وحديثه فيضاً من علومه ومعارفه ومعانيه، فكان يشابه كتاب الله في علومه وأحكامه، ويوافقه دائماً في

أقواله وأفعاله وتقريراته (سنّته)، كما كانت بلاغته من بلاغته، حتى عدّ علماء اللغة، متكلِّمو العربية، حديث رسول الله ﷺ في الدرجة التالية لكتاب الله من حيث البلاغة، وقوّة العبارة، وجزالة اللفظ، فعدُّوا الحديث الشريف حجّة في اللغة العربية وقواعدها مع القرآن الكريم.

فصار القرآن الكريم ـ في غياب الرسول ـ ميزاناً ومعياراً لمعرفة الحديث الشريف، صحيحه من سقيمه، فما وافق منه القرآن كان حجّة يعمل بمقتضاه، وما خالف القرآن تُرك مضمونه وحكم عليه بالوضع، كما ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ: «إذا وردكم عني الحديث فاعرضوه على كتاب الله، فإذا وافق كتاب الله اعملوا به، وإذا خالف كتاب الله اضربوا به عرض الحائط»، وفي رواية: «وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»[1] وهذا الحديث وإن تسوّر على مقامه بعضهم محاولين التقليل من أهميته، غير أنه ينبئ عن حقيقة أساسية مفادها أن الرسول ﷺ لا يخالف القرآن، وإنَّ قوله وفعله هما قرآن غير موحى من طريق جبريل، بل على لسان النبي ﷺ بهدي من الله عز وجل وتوفيقه وتسديده. وقد جاءت مجموعة كبيرة من الحديث الشريف والسنة المطهّرة، تحكي كتاب الله، وتنطق بلسانه، وهي ترجمان له، تشرح معانيه، وتؤكد أحكامه، وتبيِّن ما يرمي إليه، تقيّد مطلقه، وتخصّص عمومه، وتكمل بعض أحكامه، وتأتي دائماً متوافقة معه، لا تحيد عنه ولا تناقضه، ولا تختلف عما جاء فيه. وكيف تختلف عمَّا جاء فيه وكلاهما (القرآن والحديث) من الله، المشرّع الحكيم، والفرق بينهما أن القرآن كلام الله وشريعته من طريق الوحي، والسنة (الحديث) كلام الله وشريعته من طريق النبي بتسديد من الله عز وجل وإلهام ووحي أيضاً، لكنه لم يدخل في نص القرآن وآياته وسوره.

وتأتي هذه الموافقات بين القرآن والسُّنة لتدلّ دلالة ناصعة بيّنة على عظمة الرّسالة المحمّديَّة وأصالتها، وعلى سموّ صاحب الرّسالة وحاملها ومبلّغها وعظمته، وعناية الله به حيث اختاره على العالمين وفضّله على جميع الأنبياء والمرسلين. كما تؤكِّد على عناية الرَّسول الأعظم ﷺ بالقرآن الكريم، وانقطاعه إلى الله، وفنائه في محبّته وطاعته، وتضحيته لنشر دينه وتبليغ رسالته، وتوحيده،

ليُتمّ الله نوره به، وليكون قدوة حسنة كالقرآن. قال تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ [الأحزاب/ ٢١].

ودلّ الله عز وجل عليه، وأمر بأخذ كلّ ما يصدر عنه لأنه وحي يُوحى، ولأنه لا يخالف أمر الله وحكمه، قال تعالى: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ [الحشر/ ٧].

فكان القرآن حديثه وعلومه وسلوكه اليومي وأخلاقه. وقد سئلت إحدى زوجات النبي ﷺ عن أخلاق النبي، فقالت: «أخلاقه القرآن».

الموافقات وأهل البيت

الموافقات في ما بين القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهّرة وردت في كثيرٍ من الأمور والمسائل التي أراد الله عزّ وجل تأكيدها وتركيزها، لإفهام الأمّة وتعليمها. وطالما وُجّهت أوّلُ دعوة من الله عزَّ وجلَّ إلى الإيمان به وبرسوله الكريم إلى أهل بيت نبيّه وعشيرته الأقربين، في قوله تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ فدعا رسول الله ﷺ بني هاشم وبني عبد المطلب من أعمامه وقرابته كأبي طالب والعباس وغيرهما. فقد دلّت هذه الدعوة الخاصَّة وفي أوّل عهد الرسالة ومسيرتها، على اهتمام الباري عز وجل بأهل بيت نبيه عليه الصَّلاة والسَّلام لعلم الله بطهارة مولدهم، وسموّ نفوسهم، وكرامتهم وشرفهم في قريش وبين مختلف قبائل العرب، منهم عشيرة النبي، وأهله، يحملون في خلاياهم جيناته الوراثية وصفاته النفسية والجسدية.. وتجري في عروقهم دماؤه وأخلاقه العظيمة السامية. فجاءت هذه الموافقات لكي تحمل الأساس المتين للدعوة من أجل نجاة البشريّة، وهداية الناس، لتحقيق إرادة الله في خلافته على الأرض، ولتركيز قواعد التبليغ إلى اتّباع الطريق السويّ والصِّراط المستقيم، وتكون بالتالي من معالم الهداية وسبيل المؤمنين الصَّالحين، ومعرفة الأئمة الهداة المهديين، الذي يسلكون طريق الله وصراطه القويم في بحور الفتن التي تموج كموج البحر كما جاء في الحديث الشريف.

وتربط هذه الموافقات بين كتاب الله وسنَّة نبيه لترسل لنا إشارات روحيَّة، وأدلة نقليَّة صحيحة لاتّباع أهل البيت عليهم السلام، ومعرفة باب مدينة العلم وباب الهدى

الذي يُؤتى منه رسول الله ﷺ، ويؤخذ عنه الدين والهدى والصلاح، إذا افترقت في الدين بضع وسبعون فرقة كما جاء في النقل الصحيح، وكما قال الشاعر:

إذا افترقت في الدّين سبعون فرقةً ... ونيِّفَ كما قَدْ جاءَ في مُحكم النَّقْلِ
أفي الفرقِ الهُلاَّكِ آلُ محمدٍ ... أمْ في الفرقةِ النّاجيةِ قُلْ لي
فخلِّ لي علياً إماماً ونسلَه ... وأنْتَ من الباقين في أوْسَعِ الحِلِّ

ولم يترك الله، سبحانه وتعالى، هذه الأمّة المرحومة من غير دليل ومرجع تلجأ إليه في متاهات الضَّلالة والردّة والانحراف، إذ أنه لا ينبغي أنه يغفل الربُّ الرحيمُ العادلُ، وكذلك نبيُّه المعصوم الذي أرسله رحمةً للعالمين، أمر بيان سبيل الهداية والدّلالة على النور والطريق الصحيح الذي يتوجَّب على الأمة سلوكه، فالعدل الإلهي المطلق، والمنطق الصحيح، والعقل السليم يقتضي ذلك كله، فلا يُترك الناس سدىً، من غير دليلٍ، ومن دون تعريف للطريق الصحيح، إذا حدثت الفتن والانقلابات التي أخبر عنها عز وجل في كتابه العزيز بقوله: ﴿**وما محمّدٌ إلاّ رسول قد خلت من قبله الرّسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً وسيجزي الله الشَّاكرين**﴾ [آل عمران/ ١٤٤].

توفي رسول الله ﷺ كما أخبر الله سبحانه وتعالى متأثراً بالسُّمِّ الذي دُسَّ له في الطعام، فقُتل شهيداً مصداقاً للآية الكريمة السَّابقة، لأنه لو مات من دون سبب آخر كالسم أو القتل بغيره، لأخبر عن ذلك كتاب الله، لكنه لمّا ذكر الموت والقتل فهما حاصلان معاً من دون شكٍّ، لأنَّ القرآن الكريم دقيق في معانيه، وهو قمة البلاغة، لا ينبئ إلاَّ عما يكون.

ورحل رسول الله ﷺ بعد أن أدّى الأمانة ونصح للأمة، وتركهم على المحجَّة البيضاء ليلها كنهارها، وبعد أن بيَّن القيادة والمرجع للأمة من بعده، المتمثِّلة بأهل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً[٢]، في وصيّته الخالدة حين رجع من حجَّة الوداع ووقف بماء يُدعى خُمَّاً بين مكة والمدينة، فأوقف الحجيج، واسترجع المتقدّمين منهم، وخطب خطبته الشهيرة بخطبة حجة الوداع، وجاء فيها:

«أيُّها النّاس. . . ، وإنّي أوشك أن أُدعى فأجيب، وإنّي تارك فيكم الثّقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنّهما لن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض»[٣]. وجاء فيها أيضاً: «أيُّها الناس ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: «من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللّهُمَّ والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصرْ من نصره، واخذل من خذله، وأدِرِ الحقَّ معه حيث دار»[٤] وذلك بعد أن أخذ بيد عليّ بن أبي طالب ورفعها عالياً حتى رآها الناس. وضرب لعلي خيمة بايعه فيها الناس بإمرة المؤمنين حتى قال له حينها عمر بن الخطاب: بخٍ بخٍ لك يا ابن أبي طالب لقد أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

إذاً لم يقصّر الرسول بالتبليغ، ولم يغفل عن بيان القيادة من بعده التي ترث الكتاب والنبوّة والإمامة. وهذا بلاغ للناس لمن أراد أن يهتدي، ومن أبى فعليه وزره، وما ربك بظلّام للعبيد. قال تعالى: ﴿**أنلزمكموها وأنتم لها كارهون**﴾ [هود/ ٢٨].

فلا يكفي أن يكون المسلم، مؤمناً يفعل الخيرات والصّالحات، ويتوب من الذّنوب، ويؤدّي ما يتوجب عليه من الفرائض، بل إنه يحتاج إلى قيادة تدله على ذلك كله، وتقدمه له من الباب الموثوق الذي أمر الله به.

وهذا لطف ربّاني من الله سبحانه، وهو الهداية إلى الحقّ ومنهل الصدق، إلى الصّراط المستقيم، ليقبل الله منه عمله وعبادته وتوبته، قال تعالى: ﴿**وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمَّ اهتدى**﴾ [طه/ ١٣٥]، فالتوبة والإيمان والعمل الصالح يحتاج إلى الهداية؛ كما بيَّن عز وجل في آية أخرى أنّ أيّة عبادة مهما عظمت، فهي غير مقبولة ما لم يكن الطريق إليه وإلى معرفته هو سيّدنا محمد ﷺ، واتّباع كلّ ما جاء به من غير إشراك أي مخلوق آخر.

قال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يُحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم**﴾ [آل عمران/ ٣١].

وبيَّن رسول الله ﷺ أن هذه المحبة هي اتباع، وأن الاتباع لا ينقطع وهو يمتد بعلي وأهل بيته من بعده، كما في الحديث السابق: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، فمن لا يوالي علياً، لا يوالي رسول الله ﷺ، كما جاء في الآية السابقة وتفسيرها من سورة طه: ﴿**وإني لغفَّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى**﴾ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «ثم اهتدى إلى ولايتنا أهل البيت». وقال عليه السلام في رسالته إلى أصحابه: «ومن سرّه أن يعلم أنّ الله يحبّه، فليعمل بطاعة الله وليتّبعنا، ألم يسمع قول الله لنبيّه ﷺ: ﴿**قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم**﴾ والله، لا يطيع الله عبدٌ أبداً إلاّ أدخل الله عليه في طاعته اتّباعنا، ولا والله لا يتّبعنا عبدٌ أبداً إلاّ أحبّه الله، ولا والله لا يدّعي اتّباعنا أحدٌ أبداً إلاّ أبغضنا، ولا والله لا يبغضنا أحد أبداً إلاّ عصى الله، ومن مات عاصياً لله أخزاه الله وأكبَّه على وجهه في النّار. والحمد لله رب العالمين»[٥].

ومن هنا جاءت هذه الموافقات بين القرآن والرسول ﷺ (بين القرآن والسنة) لترشدنا إلى أنَّ مصدر التشريع واحد لا يتجزأ، وأنَّ النبي لا يتقوَّل على الله من عند نفسه وأنها ركزت في كثيرٍ من معانيها ومدلولاتها على وجوب اتّباع أهل البيت، لأنهم هم المهديُّون، تربّوا في مدرسة رسول الله ﷺ، نهلوا من علومه، قرآناً وسنة ونهجاً صحيحاً، من أصلٍ صافٍ عذبٍ لا شائبة فيه، ومعين لا ينضب، ولا تعكره الرياح، فأوجب على الأمة اتّباعهم والاقتداء بهم. قال تعالى: ﴿**أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتَّبع أمَّن لا يهدي إلا أن يُهْدَى فما لكم كيف تحكمون**﴾ [يونس/ ٣٥].

من هذه الموافقات التي جاءت لتدلنا على أهمية اتباع أهل البيت ومعرفة فضلهم والإيمان بمرجعيتهم وأخذ الدِّين عنهم، ما جاء من قرآن وسنّة يؤكِّد أحدهما الآخر ويبيِّن معناه، ويؤكِّد مبناه، وكانت السنة فيها موافقة للقرآن، وبما يختصُّ بالإشارة إلى أهل البيت وأتباعهم، قوله تعالى: ﴿**قُلْ إنْ كُنتُم تحبّونَ الله فاتَّبعوني يُحْبِبْكُمُ الله**﴾ [آل عمران/ ٣١].

وقول رسول الله ﷺ الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عليٍّ عليه السلام قال: «**والذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة إنّه لعهد النبيّ الأميّ إليّ أنّه لا يحبّني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلاّ منافق**»[٦].

ففي الآية الكريمة نجد أنَّ الله تعالى بيّن لنا أن حبّه سبحانه وعبادته وطاعته، يتمثَّل في اتّباع الرسول الأعظم ﷺ، الذي دلّ عليه وحمل رسالته ووحيه إلى الناس كافة ومحبّة الله تعالى تتمثَّل في عبادته والإخلاص له، وطاعته في كلِّ ما أمر، وترك كل ما نهى عنه. وهذه العبادة، وتلك الطاعة والاتّباع، لا يقبلها سبحانه وتعالى إلا بالإقرار بنبوّة محمَّد ﷺ، واتّباعه وطاعته، أمّا عبادة الله من غير اتّباع الرسول فهي غير مقبولة مهما بلغت من درجات الكمال والجهد وترك الدنيا والتنسُّك والعبادة.

فقد أراد سبحانه وتعالى أن يعلّمنا أن الحبّ اتباع، والاتباع عبادة، أمر الله بها ونهى عن مخالفتها، كما حصر عزَّ وجلَّ قبول عبادة العبد وتوبته باتباع الرسول، فمن غير المرور ببوابة الهدى التي اسمها محمد رسول الله، واتّباع كل ما جاء به، لا يُقْبَلُ حُبٌّ، ولا عبادة، فبوابة هداية رسول الله هي إذاً بوّابة الله، ومن حاد عنها كان عند الله من الضالّين. قال تعالى: ﴿**ومن يبتغ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ [آل عمران/ ٨٥] ويعلّمنا الله أن الحب اتباع وطاعة واقتداء، وليس عاطفة، وخفق فؤاد وإعجاب فقط، فالله تعالى أسمى من هذه المعاني البشريَّة الترابيَّة الظلاليَّة، فهو لا يتأثر بعاطفة، ولا بخفقان قلب، لكنَّه سبحانه وتعالى يفرح لتوبة عبده المؤمن، ويريد هداية العباد باتّباعه عن طريق رسله، والتزام شريعته التي أوحاها إليهم، فهو لا يعبد بحقٍّ إلا من حيث يريد هو لا من حيث يريد العباد. وقد نسب للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام هذا القول:

تعصي الإلـه وأنت تظهر حُبَّه ... هذا لعمرك في الفعال بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ... إنّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

وفي آيةٍ أُخرى بيَّن، سبحانه وتعالى، وجوب مودّة أهل البيت وليس المحبة فقط، والمودة كما تعلم، عزيزي القارئ، أعظم درجة من المحبة، وهي تعني في ما تعنيه، الطاعة، والاتّباع والحب العاطفي والروحي معاً، وهي عهد من الله. قال تعالى: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى**﴾ [الشورى/ ٢٣].

ومن هنا فإنَّ محبّة أهل البيت عليهم السلام تعني موالاتهم، وموالاة من والاهم، وكذلك معاداة من ناصبهم العداء، وهضَمَ حقوقهم، وتجرَّأ على مكانتهم العليّة حتى

تكون المحبّة والمودة صادقة ومقبولة عند الله. فالحب قد يكون نتيجة إعجاب شخصي لموقف جمالي، أو لشكل مهذَّب، أو لبطولة تفتعل، أو لعبقرية تتفجر. لكن ذلك كله لا يعني الاتّباع، ولا الاعتقاد بعقيدة. فعليّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أحبّه الكثيرون من المسلمين ومن غير المسلمين، من أولئك الذين حاولوا الاقتراب من صرحه العالي، والتعرُّف على شخصيته الفذّة، وصرّح الكثيرون بحبِّهم له، من غير اتباعٍ لعقيدته، ولا امتثال لطريقته، ولا أخذ من علمه وفقهه، لكنهم كانوا معجبين ببلاغته وقوة شخصيته، وبطولاته العجيبة ومواقفه البطوليّة، وزهده المنقطع النظير، وعبادته وتنسّكه، وتقشفه، وتنمّره في ذات الله، وانقطاعه إليه.

فهذا مثلاً الأديب المسيحي بولس سلامة يعلن في ملحمة الغدير أنّه يحب علياً، وبقي على دينه من غير اتباع لدين الإسلام، لكنه بقي عملاقاً في شعره وتقديره للإسلام، وأعمدة الدين الخالدة السامية. فقد كتب ملحمة شعرية حوت آلاف الأبيات ومئات القصائد تحكي عظمة الإسلام وعظمة قديسه الخالد علي بن أبي طالب عليه السلام. يقول في بعض أبياتها:

لا تقولوا غلاةٌ شيعةُ عليٍّ ... إنَّ في كلّ منصفٍ شيعيّا
يا سماءُ اشهدي ويا أرض قرّي ... واخشعي أنّني أُحبّ عليّا

فالقرآن الكريم في آية «المودَّة»، وفي هذه الموافقة رسم لنا درب الحقيقة، وأوضح لنا بكل دقّةٍ المعاني المرادة في عقيدتنا، وأنّه لا يكفي ادعاء الحب العاطفي لأهل البيت عليهم السلام، لكن يجب اتّباعهم وأخذ الدين عنهم، وموَدَّتهم التي هي عهد الله بطاعتهم، وتملكهم للنفس المؤمنة، والتسليم إليهم، كما هو التسليم لرسول الله صلى الله عليه وآله، واعلم أن كل من يدّعي حبَّ أهل البيت من غير اتباعهم وأخذ الدين عنهم، وكذلك الفقه والأحكام الشرعية، فإنّ حبّه مزيّف، وعبادته هو اختار مصدرها وليس الله، لأنّه لم يأت الأمر من حيث أراد الله عز وجل: ﴿**وأتوا البيوت من أبوابها**﴾ [البقرة/ ١٨٩].

وجاء الحديث الشريف بعد القرآن الكريم ليبيّن هذا الحب، وطريقة الاتّباع، وليشرح المعنى المراد من الآيتين الشريفتين (الحب والمودة). وذلك في حديث

● الأستاذ مصطفى خميس

علي عليه السلام الذي رواه الإمام مسلم القشيري في كتابه (صحيح مسلم) كتاب الإيمان من الجزء الأول والذي جاء فيه:

قال عليّ كرم الله وجهه: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأميّ إليّ أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق» وفي حديث آخر. قال له صلى الله عليه وآله: «يا علي لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق، أو ابن حيضة».

فعلّق رسول الله قبول إيمان أيّ عبدٍ بحبّه عليه السلام، ولا شكَّ في أنَّ حب أهل بيته من حبه. وهذا يعني وجوب الاتباع والطاعة، والإقرار بإمامتهم وقيادتهم، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده وماله، والناس أجمعين»[٧].

فأوضح رسول الله صلى الله عليه وآله بجلاء لا لبس فيه أنّ حبَّ عليّ عليه السلام إيمان. ولطالما عرفنا أنَّ الحب اتّباع، أي أنَّ اتباع علي وأخذ الدين عنه هو الإيمان بعينه، وهو الدين الذي ارتضاه الله ورسوله، وعليّ هو الذي يقود إليه ويدلّ عليه، وهو طريق الهداية، والباب الذي يؤدّي إلى حب الله ورسوله واتباعهما، وفي ذلك يتحقق عهد الله في الإمامة والاتباع. كما أنه لم يقل أحدٌ من العارفين أو المتكلّمين بالحبِّ القلبي المجرد عن الطاعة والاتّباع، والتزام سيرة المحبوب ومنهجه، ولو كان القصد هو الحب المجرد من ذلك كله، إذاً لنجا كل من كان يحب علياً مسلماً كان أم غير مسلم، من المعجبين بشخصيته وبطولته وبلاغته وقوة حجته، من غير أن يقتدوا بسلوكه وسيرته، أو يتبعونه في معرفة الدين والإيمان وتطبيق شرع الله. كما أوضح عليه وآله الصلاة والسلام أن بغض عليّ عليه السلام نفاق، أو أن يكون هذا القالي (المبغض) ابن حيضة أو ابن زنى، كما جاء في رواية أخرى: «ولا يبغضك إلا ابن زنى».

وإذا استقرأنا التاريخ المعاصر لأمير المؤمنين عليه السلام نجد أنَّ مبغضيه وشانئيه، والذين وقفوا منه موقف المحارب والمعادي، كانوا أولاد زنى من أمثال عمرو بن العاص، وزياد بن أبيه، الذي ألحقه معاوية بنسبه بعدما سيطر على بلاد الشام ودعا إلى بيعته، وهو ما يأخذه الفقهاء والمؤرّخون على معاوية من أنه خالف القرآن

الكريم وخالف إجماع الأمة في إلحاق أولاد الزنى بنسبه، وما ذلك إلا ليكسب له مؤيّداً وناصراً ضد الحق والخلافة الشرعية المتمثّلة بعليٍّ وأولاده، الذي أجمعت الأمة على صحّة بيعته، بل لم يسبقه أحد إلى ذلك الإجماع من المهاجرين والأنصار بصورة تلقائية، وتحت ضغط جماهير المسلمين الثائرة والناقمة على عثمان بن عفان وبني أمية الذين استغلّوا خلافة عثمان وأكلوا الباطل والحرام والرِّشا.

١ - أمّا عمرو بن العاص فهو ابن النّابغة، صاحبة الرايات الحمر في الجاهلية، وقد اختَلف في أبيه سبعة حتى غلبهم العاص بن وائل السهمي، فكان أشدّ عداءً لأمير المؤمنين وأبنائه من بعده عليه السلام. فقد روى لؤم نسبه كثير من المحققين والمؤرِّخين، يقول ابن عبد البر في كتابه: «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»[٨]: جُعل لرجل ألفُ درهم على أن يسأل عمرو بن العاص عن أمه، وهو على المنبر، فسأله، فقال: أمّي سلمى بنت حرملة، تلقَّب بالنَّابغة من بني عنزة، ثم أحد بني جلان، أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها منه عبدالله بن جدعان ثم صارت إلى العاص بن وائل، فولدت له فأنجبت. فإن كان جعل لك شيء فخذه.

ومن هذه الرواية تتَّضح خطورة سؤاله عن أمه لأنها كانت مشهورة بالزنى، فجعل لمن يسأله هذه المكافأة، وقد لعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين هجاه بسبعين بيتاً من الشعر. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إني لا أقول الشعر، ولا ينبغي لي، اللهم العنه بكلِّ حرف ألف لعنة». وقد ورد ذلك في مفاخرة الحسن عليه السلام أمام معاوية وعمرو بن العاص برواية الزبير بن بكار، كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي[٩]، وروى قريباً منها الحافظ الذهبي في كتابه «ميزان الاعتدال» بروايته عن عيسى بن عبد الرحمن أبي عبادة (مسند الروياني) عن البراء بن عازب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (اللهم إن عمرو بن العاص هجاني وهو يعلم أنّي لست بشاعر فاهجه والعنه)[١٠].

وهذه الرواية تؤكِّد تلازم أهل البيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فكما أنَّ علياً لا يحبه إلا المؤمن ولا يبغضه إلا المنافق أو ابن الزّنى، فكذلك الأمر بالنسبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو القائل: «علي مني وأنا من علي»[١١] الذي رواه البخاري وغيره.

وإذا تجاوزنا جميع المرويات في لعن عمرو بن العاص ونسبه اللئيم وأنه ابن زنى، لكفانا القرآن شاهداً، وكفى به كذلك، وهو أفضل الكلام. قال تعالى:

﴿**إنَّا أعطيناك الكوثر فصلِّ لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر**﴾ [الكوثر/ وهي مكية] وقد تضافرت الروايات لدى المفسّرين على أنها نزلت في العاص بن وائل السهمي (والد عمرو بن العاص المزعوم). فإذا كان العاص أبتر كما شهد كتاب الله بذلك وهو الشانئ الأبتر ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾ فمن أين جاءه عمرو هذا وعاش من بعده وصار أميراً على مصر ووليّاً للعهد زمن معاوية بن أبي سفيان؟!

نقل العلاّمة الطباطبائي في تفسيره (تفسير الميزان)[١٢] في تفسير سورة الكوثر، قال: وفي الدر المنثور: أخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. قال: فمات القاسم وهو أول ميت من ولده بمكة ثم مات عبدالله، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع نسله فهو أبتر، فأنزل الله: ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾.

ويؤيده ما في الاحتجاج للطبرسي عن الحسن بن علي عليه السلام في حديث يخاطب فيه عمرو بن العاص: وإنك ولدت على فراش مشترك فتحاكمت فيك رجال قريش، منهم أبو سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، وعثمان بن الحارث، والنضر بن الحارث بن كلدة، والعاص بن وائل. كلهم يزعم أنك ابنه، فغلبهم عليك من بين قريش ألأمهم حسباً وأخبثهم منصباً، وأعظمهم بغية.

٢ـ أما الأنموذج الآخر في النسب المجهول (الزنى) والذي ناصب علياً وأهل بيته العداء فهو زياد بن أبيه، وقد اختلف في نسبه. وقال ابن أبي الحديد[١٣]:

فأمّا زياد، فهو زياد بن عبيد، ومن الناس من يقول: عبيد بن فلان وينسبه إلى ثقيف، والأكثرون يقولون: إن عبيداً كان عبداً، ونسبة زياد لغير أبيه لخمول أبيه، والدعوة التي استلحق بها، فقيل تارة: زياد بن سمية، وهي أمه، وقيل تارة: زياد بن أبيه.

وروى أحمد بن يحيى البلاذري قال: تكلم زياد ـ وهو غلام حدث ـ بحضرة

عمر كلاماً أعجب الحاضرين فقال عمر بن العاص: لله أبوه! لو كان قرشياً لساق العرب بعصاه. فقال أبو سفيان: أما والله إنه لقرشيّ، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك؛ فقال: ومن أبوه؟ قال: أنا والله وضعته في رحم أمه، فقال: فهلاّ تستلحقه؟ قال: أخاف هذا العيرالجالس أن يخرّق عليّ إهابي. وأنشد فيه عبد الرحمن بن الحكم بن العاص:

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ ... لقد ضاقت بما يأتي اليدانِ
أتغضبُ أن يقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زانِ!
فأشهدُ أنّ رحمك من زيادٍ ... كرحم الفيل من ولد الأتانِ
وأشهد أنها حملت زياداً ... وصخرٌ من سُميَّة غيرُ دانِ

وقال الحسن البصري: «ثلاث كنّ في معاوية، لو لم تكن فيه إلا واحدة منهنّ لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمّة بالسّفهاء حتى ابتزّها أمرها، واستلحاقه زياداً مراغمة، لقول رسول الله: (الولد للفراش، وللعاهر الحجر)، وقتله حجر بن عديّ، فيا ويله من حجر وأصحاب حجر»[١٤].

ومن طريف ما نقله ابن أبي الحديد المعتزلي قال:

كتبت عائشة إلى زياد كتاباً، فلم تدر ما تكتب عنوانه! إن كتبت زياد بن عبيد أو ابن أبيه أغضبته، وإن كتبت زياد بن أبي سفيان أثمت. فكتبت:

من أمّ المؤمنين إلى ابنها زياد. فلما قرأه ضحك، وقال: لقد لقيت أمُّ المؤمنين من هذا العنوان نصباً[١٥]!

ولعل في قولنا: «كلّ من ناصب عليّاً العداء فهو منافق، أو ابن حيضة أو ابن زنى، هو حقيقة تؤكدها الأحاديث التي مرّت، ورحم الله القائل:

بغض الوصي علامة مكتوبة ... على جبهات أولاد الزنى

ولا شك في أنَّ بغضه عليه السلام وكذلك بغض أهل بيته نفاق وردّة، لأنهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو منهم، لحمهم من لحمه، ودمهم من دمه. وهو شجرة طوبى وهم فروعها. ومن هنا، أيضاً، ومن خلال هذه الحقيقة التي تؤكدها السنة الشريفة،

● الأستاذ مصطفى خميس

ومن خلال هذين الأنموذجين المشهورين (عمرو وزياد) يمكن أن نعرف غيرهم من الذين آذوا رسول الله في عترته وناصبوا أهل بيته العداء، فجاء القرآن الكريم مبيّناً أن عبادة الله لا تأتي إلاّ من خلال الإقرار بنبوّة رسول الله ﷺ واتباعه والتسليم له. وجاء الرسول الأكرم ﷺ ليركز هذه القضية بأنّ حب عليّ عليه السلام ومن ثم حب من تفرع عنه من الأئمة وأتباعهم والإقرار بإمامتهم والتسليم لهم هو الإيمان بعينه الذي أراده الله ورسوله، وإن ترك سبيلهم والابتعاد عن هديهم وإمامتهم هو نفاق وشرك، وهو كفر، لأنه عكس الإيمان «لا يحبك إلا مؤمن». ومن هنا كان أهل البيت القاسم المشترك الأعظم للمسلمين المؤمنين بنبوّة محمد ﷺ ورسالته العظيمة، وهم المحور الرئيسي الذي يدور حوله المسلمون، ويتحلّقون حوله كالهالة بالقمر، وهم منطلق وحدة الأمّة، وقوة شوكتها، وعصمتها من الضّلال والانحراف.

قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، وأهلي أحب إليه من أهله، وعترتي أحب إليه من عترته، وذريّتي أحب إليه من ذريته»(١٦).

وروى الزمخشري في تفسيره (الكشاف) في قوله تعالى: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودَّة في القربى﴾** [الشورى/ ٢٣] عن النبي ﷺ أنه قال:

«من مات على حبّ آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنة، ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنّة كما تزفّ العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح الله له في قبره بابين إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزاراً لملائكة الرحمن، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنّة والجماعة.

ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشمّ رائحة الجنة»(١٧).

قال الإمام الشعراني: وما أحسن ما أورده الشيخ الأكبر في الفتوحات(١٨):

فــلا تعــدل بــأهــل البيــت خلقــاً فــأهــل البيــت هــم أهــل السيــاده
فبغضهـــم مـــن الإنســـان خســـرٌ حقيقـــيٌّ وحبُّهـــمُ عبـــاده

هذه الأحاديث تؤكِّد وجوب محبَّتهم ومودتهم، واتباعهم لتحقيق الفائدة من المحبَّة والمودة، ولتحقيق قوله تعالى: **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾**.

وقد جاءت أحاديث عديدة تحذّر من بغضهم وأن من ناصبهم العداء منافق وابن زنى كما قد مرّ معنا. وقد أورد العلاَّمة الحسكاني الحنفي في كتابه «شواهد التنزيل» عدَّة أحاديث تؤكد خطورة هذا الموقف وذلك في تفسير قوله تعالى: **﴿واستَفْزِز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعِدْهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾** [الإسراء/ ٦٤].

فقد روى بسنده عن جابر بن عبدالله الأنصاري، قال:

كنّا مع النبيّ ﷺ إذ أبصر برجل ساجد راكع متطوّع متضرع. فقلنا: يا رسول الله ما أحسن صلاته؟ فقال: هذا الذي أخرج أباكم آدم من الجنة.

فمضى إليه عليّ غير مكترث، فهزّه هزاً أدخل أضلاعه اليمنى في اليسرى، واليسرى في اليمنى، ثم قال: لأقتلنّك إن شاء الله. فقال: لن تقدر على ذلك، إن لي أجلاً معلوماً من عند ربي، مالك تريد قتلي؟ فوالله ما أبغضك أحد إلا سبقتْ نطفتي في رحم أمه قبل أن تسبق نطفة أبيه!!! ولقد شاركت مبغضك في الأموال والأولاد. وهو قوله تعالى في محكم كتابه: **﴿وشاركهم في الأموال والأولاد، وعِدْهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾**.

فقال النبي: «صدقك والله يا عليّ، لا يبغضك من قريش إلا سفاحياً، ولا من الأنصار إلا يهوديّاً، ولا من العرب إلا دعيّاً، ولا من سائر الناس إلا شقياً، ولا من النساء إلا سلقلقية، وهي التي تحيض من دبرها.

ثم أطرق مليّاً فقال: معاشر الأنصار اغدوا أولادكم على محبة علي»[١٨].

وروى قريباً منه عن حبة العرني، وعن ابن عباس رضي الله عنهما.

● الأستاذ مصطفى خميس

ميزان الإيمان

ولنا الآن أن نتساءل: لماذا هذا التركيز على مسألة الحب (الاتباع) والبغض التي تقابلها؟ وما علاقة ذلك بإيمان المسلم.

نقول: إنَّ التركيز على هذه المسألة يكمن السرّ فيه بأنَّ النبي ﷺ أراد أن يعرف المؤمن من المنافق، وذلك لأن الجميع يظهرون حب رسول الله ﷺ وأنّهم نعم المتَّبعين له، وأن المنافقين بخاصة يغالون في ادعاء المحبة والتقرُّب والاتباع فجعل علياً عليه السلام هو ميزان ذلك، فمن أحبه أحب الله ورسوله، ومن أبغضه أبغض الله ورسوله، لأن النبي ﷺ جعله من نفسه، حبُّه من حبِّه، وبغضُه من بغضِه، قال عليه وآله الصلاة والسلام.

«عليّ مني وأنا من علي»[١٩] وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[٢٠].

وقد ترجم القرآن الكريم هذا المعنى إلى واقع عملي وذلك في قوله تعالى: **﴿فمن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالَوا ندعُ أبناءَنا وأبناءكم ونساءَنا ونساءكم﴾** [آل عمران/ ٦١][٢١].

وقد أجمع المفسِّرون على أنها نزلت في الحسن والحسين وفاطمة وعلي عليهم السلام عندما أراد رسول الله ﷺ مباهلة نصارى نجران[٢٢].

وبتحقيق معاني القرآن والسنة النبوية الشّريفة، من خلال الآية والحديثين السَّابقين، يتأكد لنا من دون ريب أن رسول الله ﷺ وأهل بيته متلازمون في المحبة ووجوب الاتباع، لذلك جعل النبيُّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو سيّدهم، ميزاناً لهذا الحبِّ، ومعياراً لمعرفة من يحب النبي ويتبعه ممَّن لا يحبه ولا يؤمن برسالته. إضافة إلى ما يحمله علي بن أبي طالب عليه السلام من أسرار النبوة ومن العلم والفقه ووراثة الكتاب ووصاية الرسول الأعظم ﷺ، وفي كل هذه المعاني نقرأ آيات وأحاديث وسنناً يمكن تفصيلها في محلها بإذن الله.

ومن هذه الموافقة الروحيّة النورانيّة بين القرآن والسنة نجد أنَّ عبادة الله عز وجل لا تكون مقبولة ومبرئة للذمة إلا من خلال اتّباع الرسول محمد ﷺ، وأن

اتّباع الرسول ومحبته والإيمان بدعوته لا تتحقّق إلا من خلال اتباع علي بن أبي طالب عليه السلام ومحبته ومودته.

يضاف إلى ذلك كلّه أن علياً عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام هم الهداة المهديّون، يهدون إلى الحق وبه يعدلون، وهم جذوة من نور إمامهم الأعظم وسيّدهم الأكبر محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهم الصراط المستقيم، وسبيل الهداية، وباب حطّة، وسفينة نوح في هذه الأمة، من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق وهلك، كما صحَّ في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. واليوم تجد الكثيرين ممن يقولون: نحن نحب أهل البيت، أو: لا يوجد مسلم في العالم لا يحب أهل البيت. لأنهم من رسول الله، حبهم من حبه، ومودتهم من مودته.

أجل فأهل البيت هم القاسم المشترك الأعظم لكل الأمة، وهم محور وحدتها وعزّتها وقوتها، وبالاقتداء بهم وباتّباعهم تبني الأمّة صرح وحدتها، وتستعيد أمجادها. ولكن بعد أن عرفنا ما قاله القرآن وما قالته السنة المطهرة، من تفسير لمعنى الحب، وأنه في العقيدة والشريعة يعني الاتباع، والالتزام التام بكل ما يأتي به المحبوب (المُتَّبع) فإنَّ الحب اللفظي، أو احترام أشخاص معيَّنين لأنهم من نسل النبي ومن أهل بيته، هو موقف إيجابي وعرفان بفضل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي أنقذ الناس من الظلمات إلى النور ﴿**وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها**﴾ [آل عمران/ ١٠٣].

لكنّ الله عز وجل علّمنا غير ذلك، علّمنا أنّ الحبَّ اتّباع، وأنَّ المودَّة في القربى: ﴿**قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودَّة في القربى**﴾ هي اتباع واقتداء وشريعة. وأنَّ من يدّعي حبَّ محمد وآل محمد ولا يواليهم حقّ الموالاة، ولا يتّبع علمهم وحديثهم، فيوالي أولياءهم ويعادي أعداءهم، فهو إلى النفاق أقرب ـ والعياذ بالله ـ وادّعاؤه هو قول بلا فعل، وقد كره الله سبحانه هذا الموقف فقال عز وجل: ﴿**كَبُرَ مقتاً عند الله أنْ تقولوا ما لا تفعلون**﴾ [الصف/ ٣].

وأوضح الإمام عليّ الرِّضا عليه السلام هذا المعنى، عندما طلب منه المأمون (الخليفة العباسي) أن يصعد المنبر ويخاطب أهل خراسان، بأنه وليّ عهد الخليفة،

وأنه لا يعارضه فيكون في حديثه غطاء شرعياً لخلافة المأمون، لكن الإمام لا يداهن، فصعد عليه السلام المنبر، وتوجّه إلى أهل خراسان، وقال:

«أيها الناس، كذبَ واللهِ مَنْ يدَّعي حبّنا ويوالي فرعَ غيرنا»، وأشار إلى المأمون. ثم نزل من على المنبر وما هي إلا سُويعات قصيرة، إلاّ وكان السّمّ يجري في دماء الإمام، ومات شهيد هذا الموقف، وهذه الكلمة الحرّة.

فَلْيعرف من غفل عن هذا الأمر، ويدَّعي أنه يحبُّ أهل البيت، ولا يتَّبع سبيلهم ولا يعرف حديثهم ولم يسمع حتى بأسماء أئمتهم، كيف يكمل إيمانه، وكيف يبرئ ذمته أمام الله عزَّ وجلَّ؟! وكيف يقرّ له قرار وهو يعلم أنَّ أهل البيت يهدون إلى الحق، وهم عترة النبي، وقد أوجب الله مودَّتهم واتّباعهم وأخذ الدين والأحكام الشرعية عنهم، ثم يبحث فلا يجد لهم ذكراً في كثيرٍ من الكتب التي روّج لها الحكام وأجبروا الناس على اتّباعها، وقد وطّأ لهم بعض الفقهاء ما يروق لهم، فلم يذكروا فضائل أهل البيت في كتبهم السياسية تلك، ورحم الله الإمام البخاري ومسلم والإمام أحمد بن حنبل الذين كسروا طوق هذا المنع الّذي اختص بحجب فضائل أهل البيت عليهم السلام، فرووا في كتب الحديث عندهم ما تقرّ له العين، وتطمئن له النفوس، في مدائح النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين وفضائلهم. حتى لقد تعرّض بعض فقهاء المذاهب كالإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي والإمام أحمد إلى نقد هؤلاء الظَّلَمة، وإلى شرورهم وأذاهم، فاتهموهم تارة بالتشيع لأهل البيت، وطوراً امتحنوهم بمحن اختلقوها لتفرُّدهم بفضائل خاصة بأهل البيت كمحنة الإمام أحمد بن حنبل المعروفة بمحنة خلق القرآن، وما ذلك إلاّ لإكثاره من رواية فضائل أهل البيت وإقراره بأن علياً عليه السلام من الخلفاء الراشدين، إذ كانت الحكومات الوضعية والخلافات الغاصبة تقول بأن الخلفاء الراشدين هم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ويسكتون، حتى جاء ابن حنبل فكسر هذا الحاجز وعدَّ علياً عليه السلام رابعهم، وإن كان بحق هو الوصيُّ الأوْحد لرسول الله صلى الله عليه وآله وهو إمام الأمّة من بعده وأبو سبطي رسول الله وأئمة أهل البيت المطهّرين. لكنه موقف يذكر لهؤلاء المجتهدين الذين خدموا هذا الدين بقدر ما استطاعوا.

وللردّ على أولئك المتزمّتين الّذين ينتقدون أتباع مدرسة أهل البيت لتعظيمهم الأئمّة المعصومين عليهم السلام. نقول لهم: إن اتّباع أهل البيت وتعظيمهم هو تنفيذ لأمر الله عز وجل، فهم من شعائر الله وحججه على عباده، وإن اتّباعهم وتعظيمهم هو اتباع لرسول الله وتعظيم له ولرسالته السامية، فإذا كانت الصفا والمروة من شعائر الله، لأنها تشعر بحدث كان زمن هاجر أم إسماعيل عليهما السلام، وهي حجارة لا تنهي ولا تأمر، وإذا كانت الشعائر هي دلائل تذكّرنا بالله وبسيرة أنبيائه، فإن أهل البيت ومن دون أدنى شك هم من شعائر الله ورسوله. قال تعالى: ﴿**ومن يعظّم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**﴾ [الحج/ ٣٢].

روى الحاكم في المستدرك على الصحيحين بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نظر النبيّ صلى الله عليه وآله إلى عليّ، فقال:

«يا عليّ، أنت سيّد في الدنيا، وسيد في الآخرة، حبيبك حبيبي، وحبيبي حبيب الله، وعدوّك عدوّي، وعدوّي عدو الله. والويل لمن أبغضك بعدي» صحيح على شرط الشيخين. قال الذهبي في تلخيصه: رواته ثقات[٢٣].

فهل يحبُّ عليّاً كلُّ من ناصبه العداء، أو حاربه وقاومه بالسيف، أو من سنّ لعنه على منابر المساجد، أو من أبغضه ومنع رواية فضائله وفضائل أهل بيته، أو من قتل أولاده، وشرّد ذرّيته، أو من عرف ذلك ولم يتبرأ من فاعليه؟!

من كلّ ما تقدّم نستخلص أنَّ القرآن الكريم قد ركّز على أهل البيت عليهم السلام، وأعطى إشارات ودلائل قاطعة، تدلُّ على أفضليتهم ووجوب اتّباعهم، وأخذ الدين عنهم (من كتاب وسنة)، وأنَّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله جاء مصدّقاً لخبر السماء، ومتمّماً للنور الذي أُنزل معه، فبيّن بنصوص صريحة لا تقبل التأويل، وبأحاديث متواترة جليّة، أفضلية أهل البيت وأنّهم عصمة من الضلال لمن تمسّك بهديهم، وسار على نهجهم. وجاءت هذه الأحاديث متوافقة مع آيات الكتاب العزيز وداعمة لها، وموضّحة لمرادها، ومؤكّدة لمعانيها. والتلازم بينها يصل أحياناً إلى حدّ التطابق الكلّي في القول والمعنى، وبعضها يحاكي الشكل ويؤكد المضمون.

والغاية من ذلك كلّه هي لكي يبيّن الله بوحيه، ونبيّه بسنته، مكانة أهل البيت في الرّسالة والتبليغ، ووجوب مودّتهم واتّباعهم.

إنّ ما ذكرته في الصفحات السابقة كان واحدة من هذه المطابقات والموافقات، وهي أنّ محبة الله (عبادته) هي اتباع للرسول ﷺ، وأن اتباع الرسول هو اتّباع لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأهل بيته من بعده من غير فصلٍ ولا تفريقٍ بين الطريقين، لأنهما واحد. قال تعالى: **﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السُّبُلَ فتفرّق بكم عن سبيله﴾** [الأنعام/ ١٥٣].

وهناك موافقات أخرى هامة وجديرة بالوقوف عندها واستخلاص العبرة منها من قبل:

قوله تعالى: **﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾** [الأحزاب/ ٦].

وقول رسول الله ﷺ: «من كنت مولاه فعليّ مولاه».

وكذلك قوله تعالى: **﴿وأْتُوا البيوت من أبوابها﴾** [البقرة/ ١٨٩].

وقول رسول الله ﷺ: (أنا مدينة العلم ـ الحكمة ـ وعليّ بابها)...

وغيرها.

وكلٌّ منها تُعدُّ حجّةً بحدّ ذاتها، وتؤكّد إرادة الله عزَّ وجلَّ في بيان أفضليّة أهل بيت نبيّه المعظّم ﷺ، من طريق وحيه مرّةً، ومرّة أخرى من طريق رسوله الأكرم ﷺ، زيادةً في التأكيد، وبياناً لسبيل الهداية والرّشاد. كما أن كلاً منها يحتاج إلى بحث مفصّل، يمكن إلحاقه بهذه الموافقة في دراستنا المشار إليها؛ خدمة للحقيقة، ولمدرسة الإسلام العظيم المتمثلة بمحمد وأهل بيته عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتمّ التسليم. والحمد لله ربّ العالمين.

الهوامش:

(١) الكافي للكليني (١ : ٦٩) باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب، من كتاب (العلم).

وتفسير فخر الدين الرازي، التفسير الكبير (١١ : ١٦٣)، تفسير آية الوضوء.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً**﴾ [الأحزاب/ ٣٣].

(٣) صحيح مسلم(٧: ١٢٢)، وسنن الترمذي (٥ : ٣٢٩) ط: دار الفكر. وصحيح سنن الترمذي (٣: ٢٢٦) تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني. ط: الرياض.

(٤) سنن الترمذي (٥ : ٢٩٧)، وسنن ابن ماجه (١ : ٤٣) ومسند أحمد بن حنبل (٤ : ٢٨١)، وذخائر العقبى للطبري (ص ٦٧) والمناقب لابن المغازلي الشافعي (ص ٢٩)، والصواعق المحرقة (ص ١٢٢).

(٥) معادن الحكمة، ١/ ٨٦.

(٦) صحيح مسلم (١ : ٦١) كتاب الإيمان.

(٧) المصدر نفسه (١ : ٤٩) كتاب الإيمان.

(٨) الاستيعاب لابن عبد البرّ (٢ : ٥٠٨) ط: دار السعادة بمصر. الأولى.

(٩) شرح نهج البلاغة (٢ : ٤٥٨) ط: دار الحياة.

(١٠) ميزان الاعتدال للحافظ الذهبي (٣: ٣١٧).

(١١) صحيح البخاري (٢ : ١٩٩).

(١٢) تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي (٢ : ٣٧٢).

(١٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (١٤ : ١٨٠ وما بعدها) طبعة القاهرة.

(١٥) المصدر نفسه (١٦ : ١٩٣).

(١٦) المصدر نفسه (١٦ : ٢٠٤).

(١٧) منتخب فضائل النبي وأهل بيته (ص ٣٥٥) عن كنز العمال (١ : ٤١) والمعجم الكبير للطبراني (٧: ٧٥) وشعب الإيمان للبيهقي (٢: ١٨٩) ونور الأبصار للشبلنجي (ص ١١٤) ومجمع الزوائد (١ : ٨٨).

(١٨) المصدر نفسه (ص ٣٥٦) عن تفسير الكشاف للزمخشري (٣: ٤٦٧) وتفسير فخر الدين الرازي (٢٧ : ١٦٥) وتفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦ : ١٦) ونور الأبصار (ص ١١٤).

(١٩) نور الأبصار للشبلنجي (ص ١١٦).

(٢٠) شواهد التنزيل للعلاّمة الحسكاني الحنفي الحذّاء المتوفى سنة ٤٢٣هـ (١ : ٣٤٤). ط: ١، مؤسسة الأعلمي، وفي حاشيته للمحمودي: عن ابن عساكر من تاريخ دمشق (حديث رقم ٧٢٩)

وفي تاريخ بغداد (٣: ٢٩٠) ترجمة أبي الأزهر محمد بن فريد تحت رقم (١٣٧٦). ورواه الكنجي الشافعي في كفاية الطالب (ص ٦٩) آخر الباب الثالث.

(٢٠) صحيح البخاري (٢: ٢٩٩).

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) صحيح مسلم (٧: ١٢٣) كتاب الفضائل، والتفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي (٨: ٨٠)، الصواعق المحرقة لابن حجر (ص ١٥٥) وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (١: ٣٧٦) وتفسير الكشاف للزمخشري (١: ٢٦٨) وشواهد التنزيل للحسكاني الحنفي (١: ١٢٤) وأهل البيت في القرآن للصادق الحسين الشيرازي (ص: ٣٨).

(٢٣) المستدرك على الصحيحين (٣: ١٢٨) كتاب معرفة الصحابة.

* * *

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى